الأنثروبولوجية بين الفكر الغربي القرآني الإسلامي و الفكر الإسلامي

–دراسة مقارنة–

أ. عبد الرزاق غراف

جامعة معسكر

شهدت الادبيات الفكرية الانثربولوجية العديد من الخلافات والاختلافات بين ما ينص عليه الفكر الاسلامي ونظيره الغربي شكلا ومضمونا، الا أن مساحة الخلاف والاختلاف هاته لم تقف عند حدود الاصول الابستمولوجية لعلم الانثربولوجيا لدى كل فكر وفقط، بل امتدت نحوى الجذور التاريخية لكل فكر، خاصة من حيث الاسبقية الزمنية والمكانية في الدراسة، ففي حين ينص الفكر الغربي على ان علم الانثربولوجيا او ما يعرف بعلم الانسان ما هو إلا وليد العصر النهضوي الفكري الغربي، يرى فيه نظراءهم الشرقيين المسلمين ان هذا العلم الذي يدعي العلم الغربي اسبقيته اليه سابق في وجوده في الفكر الغربي بقرون في الفكر الاسلامي بل وفي أقدس مقدسات الفكر الاسلامي والمسلمين وهو القرآن الكريم، ومن خلال هذا البحث سنحاول تبيين اوجه السبق التي بينها الفكر القرآني فيما تعلق بالانثربولوجيا عما وجد بعد ذلك بقرون من الزمن في الفكر الغربي، وهذا لن يمر إلا عبر دراسة مقارنة تحدد اوجه هاته الاسبقية الزمنية التاريخية بصفة خاصة، كما تحدد اوجه الاختلاف او التشابه بين ما هو موجود في ادبيات الفكر الاسلامي من خلال القرآن الكريم وما هو موجود في ادبيان الفكر الغربي،

من حيث مضمون الاصول الفكرية في كل فكر على حدى، ومن هذا المنطلق تم طرح الاشكالية التالية: ما مدى التوافق والاختلاف بي الفكر الغربي والفكر الاسلامي القرآني حول علم الانثربولوجيا؟

وفي محاولة الاجابة على هذه الاشكالية تم طرح فرضية مفادها: أن الفكر الاسلامي القرآني سبق الفكر الغربي في دراسة علم الانثربولوجيا، إلا أن الفكر الغربي يعود له الفضل في استقلالية علم الانثربولوجيا عن باقي حزمة العلوم الاجتماعية، وذلك رغم الاختلاف الاصولي المتضاد بين الفكرين.

وقسمت الدراسة حسب التقييم المنهجي الآتي :

1- ماهية الانثربولوجيا "المفهوم ومجال الدراسة"

2- الاصول الفكرية لعلم الانثربولوجيا"التطور التاريخي".

3- أوجه المقارنة بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي حول الانثربولوجيا.

- القرآن ومذهب التطوريين.
- الثقافة مفهوم قرآني لا غربي.
- **مسألة البدائية بين الحقيقة والوضع والتنظير.**

I.ماهية الانثربولوجيا "المفهوم ومجال الدراسة":

الأنثروبولوجيا هو مصطلح يوناني مكون من لفظين الأول أنثربوس (anthropos) ويعني الإنسان والثاني لوجوس (logos) ويعني علم، والمعنى الاشتقاقي هو "علم الإنسان" (anthropology) وبعض العلماء يعرفونه بأنه علم ثقافة الشعوب أو علم دراسة الإنسان وأعماله أو علم ثقافة المجتمع. وهناك علوم كثيرة تدرس الإنسان مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق وعلم السياسة وعلم الاقتصاد، ولكن كلا منها يدرس الإنسان من ناحية معينة [1]، فمثلا علم النفس يدرس الإنسان من حيث السلوك فهو إذا علم السلوك، وعلم الاجتماع يدرس الإنسان من حيث كونه عضوا في المجتمع.. وهكذا.

أما علم الإنسان فيدرس الإنسان من كل هذه الزوايا عن طريق منهج المعايشة الميدانية. والباحث في الأنثروبولوجيا كي يدرس مجتمعا فلا بد أن يكون هذا المجتمع محدودا، فيعايشه ويندمج معه ليعرف قيمه وعاداته وتقاليده ورموزه وثقافته وملامح أفراده، من حيث تكوينهم الجسمي مثل الطول ولون الشعر والعينين وشكل الجبهة والشفتين... الخ. حتى تكون فكرته عن هذا المجتمع متكاملة وشاملة.

و تعرف الأنثروبولوجيا تعريفات عدة أشهرها:

1- علم الإنسان.

2- علم الإنسان وأعماله وسلوكه.

3- علم الجماعات البشرية وسلوكها وإنتاجها.

4- علم الإنسان من حيث هو كائن طبيعي واجتماعي وحضاري.

5- علم الحضارات والمجتمعات البشرية.[2]

وقد عرفته عالمة الأنثروبولوجيا الشهيرة "مارغريت ميد" [3] بقولها: أن الأنثروبولوجي يحاول وصف الخصائص الإنسانية، والبيولوجية، والثقافية للجنس البشري عبر الأزمان، وفي مختلف المناطق، ويحلل الصفات البيولوجية والثقافية والمحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة، كما يصف ويحلل النظم الاجتماعية والتكنولوجية، ويبحث الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته.[4]

وعرفه "شاكر مصطفى سليم" بأنه: علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً.[5]

وتعرف الأنثروبولوجيا بأنها العلم الذي يدرس الإنسان من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظل ثقافة معينة، ويقوم بأعمال متعددة، ويسلك سلوكا محدودا، وهو أيضا العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة،

ويحاول التنبؤ بمستقبل الإنسان معتمدا على تطوره عبر التاريخ الإنساني الطويل، ولذا يعتبر علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجيا) علما متطورا، يدرس الإنسان وسلوكه، وأعماله.[6]

وعلم الأنثروبولوجيا هو ذلك العلم الشمولي الذي يدرس الإنسان وأعماله، الذي تتمحور أبحاثه حول طبيعة الإنسان كمخلوق ينتمي إلى العالم الحيواني، وإنه الوحيد الصانع للثقافة ومبدعها، والقادر على التعبير عما يجول في داخله بكلمات منطوقة مُرمَّزَة، والقادر على التفكير المجرد، والعيش ضمن جماعة، يرتبط أفرادها بروابط اجتماعية، وثقافية، وروحية غير ثابتة، لارتباطها بظروف موضوعية متنوعة، ومتحركة، تحيط بهذه الجماعة أو تلك التي تختلف في الزمان والمكان، والتي تنعكس بدورها على تلك الروابط، مما يجعلها تتباين شكلاً ومضمونا.[7]

ويطلق على هذا العلم عدة مسميات هي: (الأنثروبولوجيا)، و(علم الإنسان)، و(علم الإناسة).

إذن فعلم الأنثروبولوجيا يدرس الإنسان بكونه أحد أفراد مملكة الحيوان، ويدرس سلوك الإنسان في المجتمع، والأشكال الأولى للإنسان، والمجاميع الأولى لبني البشر، كما وتحاول الأنثروبولوجيا كشف وتوصيف المعايير الفيزيقية التي تميز الجنس البشري عن سائر الكائنات الحية الأخرى، وفق دراسات ذاتية ومقارنة حتى داخل الأسرة الواحدة.[8]

ولابد أن نعلم أن علم الاجتماع والأنثروبولوجيا علمان متقاربان متشابهان، بحيث لا يمكن للباحث الفصل أو التمييز بين هذين العلمين لدرجة تقاربهما [9]،بل إن علم الأنثروبولوجيا تندرج فيه كل العلوم التي لها صلة بالإنسان، فهو العلم الشامل لكل ما يختص بالإنسان، وهذه الشمولية تستمد من خلال فروع الأنثروبولوجيا المختلفة، والتي تشكل جسراً بين العلوم الاجتماعية، والإنسانية، والطبيعية، والطبية، وغيرها من العلوم[10]، ومهمة الأنثروبولوجيا الأساسية

هي تمكيننا من فهم أنفسنا عن طريق فهم ثقافتنا بالإضافة للثقافات الأخرى، وينصب اهتمامه على عوامل الوحدة، والاختلاف في المجتمع البشري، لكي نقدر أن نفهم بعضنا.

II.الأصول الفكرية لعلم الانثروبولوجيا "التطور التاريخي":

وتقول الدراسة إن علم الإنسان أو علم الأنثروبولوجيا الذي يدعي الغرب أنه علم غربي لم يعرف إلا منذ قرنين من الزمان، إنما هو علم عربي إسلامي أصيل، لأن الرواد من العلماء المسلمين الرحالة الذين جابوا الأقطار المختلفة كانوا أنثروبولوجيين بمعنى الكلمة قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوروبا. وقد قام هؤلاء العلماء الرحالة برحلاتهم اهتداء بقول الله تعالى [أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف بدأ الخلق]. وقول الله تعالى [ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة] فهؤلاء العلماء طافوا العالم ودرسوه جيدا وسجلوا كل شيء عن شعوبه المختلفة حسب مفردات منهج الأنثروبولوجيا الحديث.

وعلم الإنسان الذي يقوم على مقارنة الشعوب والمجتمعات بعضها ببعض، يهدف إلى الوصول إلى أن الجنس البشري واحد وأنه مؤتلف لا مختلف، وأنه يجب أن يتواصل لا أن يتباعد، وعن علاقة علم الإنسان بالقرآن يقول "د. زكي إسماعيل" إنها علاقة وثيقة لأن القرآن أنزله الله لهداية البشر جميعا فمحور القرآن هو الإنسان، وعلم الإنسان علم وضعي وضعه الإنسان لدراسة الإنسان ليصل إلى نفس الهدف وهو فهم الإنسان ومن خلال هذا الفهم يمكن أن يحدث التقارب لا التباعد والوئام لا الخصام، فسبب الحروب التي تحدث بين الشعوب كانت النتيجة أن الإنسان لا يفهم الإنسان وحتى في البلد الواحد كيوغوسلافيا وروسيا تقوم الحروب بين أهل البلد الواحد لأن الصرب والروس لا يفهمون المسلمين.. ونفس الأمر يحدث في كل أنحاء العالم ولهذا قامت الحرب العالمية الأولى والثانية.. فهتلر قال إن ألمانيا فوق الجميع ولم يفهم أن أوروبا لها كبرياؤها وكرامتها.

وهكذا فإن علم الإنسان يهدف إلى الوصول إلى وحدة الجنس البشري وفهم الإنسان للإنسان بلا فوارق وبالتالي فهو يلتقي مع الإسلام الذي يقول (كلكم لآدم وآدم من تراب)، ويقول أيضا على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم (لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى)، وهكذا فإن المفاضلة في الإسلام بين إنسان وإنسان تختلف تماما عنها في البراجماتية الأمريكية أو الرأسمالية الغربية أو الشيوعية الشرقية.

وعلم الإنسان يدرس الإنسان من حيث جسمه وطبيعته البيولوجية، ومن خلال هذه الدراسة وصل هذا العلم إلى أمور هامة، لكن سبق القرآن هذا العلم فذكر هذه الأمور في قوله تعالى [ولقد كرمنا بني آدم ورزقناهم من الطيبات وحملناهم في البر والحر وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا]، وهذا التفضيل قال عنه المفسرون التقليديون عند تمييز الإنسان عن الحيوان بأنه يعيش منتصبا على رجليه ويأكل بيديه وينظر للأمام، ولكن دراسات علم الإنسان الفيزيقي تجاوزت آراء المفسرين التقليديين وقالت إن الإنسان لم يكرمه الله فقط بالعقل والفكر وإبداع الثقافة وإنما بتكوين جسمي عضوي فريد يتجلى في التركيب المخي المتميز بتعقيد معين لا يوجد في غيره من المخلوقات، كما يتميز بالتركيب الخاص للقدم والحوض والسيقان والسلسلة الفقرية واليدين والإبصار، والباحث المتعمق في هذه الأمور يصل إلى أن الله لم يخلق الإنسان عبثا وإنما لغاية وحكمة معينة.

1. الأنثروبولوجيا من حيث التاريخ "الظهور الاصطلاحي":

لقد ظهر مصطلح (الأنثروبولوجيا) في بريطانيا عام (1593م)، وكان المقصود به دراسة الإنسان من جميع جوانبه الطبيعية والسيكولوجية والاجتماعية، وظل يحمل معنى الدراسة المقارنة للجنس البشري، ويحاول أصحاب هذا العلم دراسة الإنسان وكل أعماله، أي كل منجزاته المادية والفكرية، أي الدراسة الشاملة للإنسان، أما كعلم إنسان مختص لم يعرف في الغرب إلا منذ قرنين من الزمان، وإن الأنثروبولوجيين الغربيين، ولا سيما الأوربيون منهم، يرون أن الأصول النظرية الأساسية لعلم

الأنثروبولوجيا ظهرت إبان عصر (التنوير) في أوربا، أي في (عصر النهضة) حيث تمت كشوفات جغرافية، وثقافية، وصناعية كثيرة داخل أوربا وخارجها، وبذلك نعلم أن علم الأنثروبولوجيا – بما يحمل المسمى من معنى – علم حديث العهد إذا ما قيس ببعض العلوم الأخرى كالفلسفة والطب و الفلك وغيرها.

وعن كلمة (أنثروبولوجيا) يذكر الباحث الفرنسي (جان بواربيه): إنها ظهرت أولاً في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن الثامن عشر لتعنى بدراسة التاريخ الطبيعي للإنسان.[11]

أما عن فروع (الأنثروبولوجيا) المتعددة فلم يشهد هذا العلم قبل النصف الثاني من القرن العشرين تقسيمات، أو فروعاً متعددة، إذ كانت قبل ذلك خاصة بالباحث، والعالم المتخصص بهذا العلم، ومع انطلاقها في الستينات من القرن العشرين أخذت تتبلور حتى وصلت إلى أن تكون علمًا مستقلاً له خصوصيته ومعالمه وأهدافه، لذا فقد شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا وتطويرها لتصبح كياناً أكاديمياً، ومهنة عند الكثير من العلماء.

2. الأنثروبولوجيا من حيث المحتوى والحقيقة:

أما من حيث المحتوى، ألا وهو دراسة الإنسان وكل ما يتعلق به ودراسة المجتمع، والبحث في الشؤون الإنسانية، والمجتمعات البشرية القديمة قدم الإنسان، وذلك منذ وعى الإنسان ذاته وبدأ يسعى للتفاعل مع بيئته ومجتمعه وأبناء جنسه، إن الاهتمام بالإنسان وبكل ما يختص به هو محور الديانات، ورسالات الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) والكتب السماوية، لكن وبما أن الكثير من التحريف والتزوير قد طرأ على الرسالات والكتب السابقة، فلم يبق لنا إلا مصدر واحد "**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد**"(**فصلت: 42**)، ألا وهو (القرآن الكريم)، وبذلك يصبح علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) علمًا إسلاميًا بامتياز، وضع أسسه القرآن الكريم، ووضحت هذه الأسس في الأحاديث الشريفة للنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم امتاز به الرحالة والمستكشفون

والبلدانيون المسلمون، والذين جابوا مختلف الأصقاع من أجل البحث والتنقيب والمقارنة بين المجتمعات البشرية، وبذلك كانوا أنثروبولوجيين بمعنى الكلمة قبل أن يظهر هذا المصطلح في أوروبا.

ولقد قام هؤلاء العلماء المسلمون برحلاتهم اهتداءا واقتداءا بقوله تعالى: **"قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ" العنكبوت:(20)**، وقوله تعالى: **"وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً" النساء:(100)**.

لذا فقد طاف العلماء المسلمون العالم، ودرسوه جيدا، وسجلوا ودونوا كل شيء عن شعوبه، لذا فإن أسس وأهداف الأنثروبولوجيا الحديثة قد حقق أهدافها العلماء المسلمون قبل أن يظهر هذا المصطلح، وقبل أن يصبح علمًا واختصاصًا تساق له النظريات، وتكتب حوله الأبحاث، وله فروعه، واختصاصاته في الكليات، والجامعات.

III.أوجه المقارنة بين الفكر الاسلامي والفكر الغربي حول الانثروبولوجيا:

إن علم الإنسان القرآني هو العلم الذي يتخذ من القرآن مرجعاً ومنطلقاً مؤسساً لكل ما يتعلق ببني الإنسان، كل ذلك من أجل صياغة تصور جديد وحقيقي نابع من الواقع ومبعد لهيمنة النظريات المادية على هذا العلم بما يرجعه إلى حظيرته الأولية والحقيقية، وبما يحفظ للإنسان خصوصيته وكرامته وموقعه الحقيقي، وما التعدد الشكلي واللوني واللساني والثقافي والمعيشي إلا عنصر تنوع وإثراء وقوة للحضارة البشرية،قالى تعالى: **"وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِلْعالِمِينَ" الروم 22.**

إن مسألة اختلاف الألوان، واللغات وغيرها، وإن سبب ذلك يرجع إلى اختلاف الدماء هو مبني على نظرية (النشوء والارتقاء)، وقضية التطور في الأنواع، القائلة بانتهاء النسل في كل لون إلى غير ما ينتهي إليه نسل اللون الآخر، وبذلك يصبح لكل نوع أب رئيسي، أو (آدم) خاص بهم.

أما القرآن الكريم فظاهر آياته تشير إلى أن هذا النسل الحاضر من الإنسان – في كل مكان – ينتهي إلى ذكر وأب واحد سماه الله تعالى في كتابه "آدم"، وإلى أنثى وأم واحدة لم يسميها تعالى في كتابه، ولكن الروايات تسميها "حواء"، إن السبب الأساسي والرئيسي في جعل القرآن مرجعاً لتأصيل علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لكونه كتاب الإنسانية الخالد، والمرجعية الربانية في العقيدة والشريعة والسلوك، ولأن الدين الإسلامي هو دين الفطرة الإنسانية، لقوله تعالى: **"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون" الروم :30.**

إن دراسة الإنسان من منطلق قرآني يمثل النظرة الحقيقية والموضوعية للمراد الإلهي، والنظرة الإلهية لبني البشر، نظرة الخالق، نظرة العارف والعالم بالجنس البشري المستوعبة لدقائق الأمور، ولأساسيات الخلقة، النظرة الشاملة والواضحة والمتوازنة المندرجة ضمن نظام دقيق لتسيير المخلوقات ليس فيه أي خلل أو قصور، ولا يعتريه العطب أو التعب أبداً، لقوله تعالى **"سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ" يس:36.**

إن مسألة التواصل، والتلاقح الثقافي هو منهج هدفه إزالة السلبيات، والرجوع إلى قاعدة الأصل الواحد التي نادى بها الإسلام عن طريق كتابه الذي يعتبر الدستور الإنساني، لقوله تعالى: **"يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحامَ إِنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً "النساء :1.**

إن القضية هي تلاقح الثقافات والحضارات، ونفي السلبيات، وإزالة الفوارق، ودعم الإيجابيات، وتنمية عمل الخير، ونشر المحبة والألفة والسلام، إذ إن ما يجمع البشر هو أكثر مما يفرقهم، وما تنوع الأجناس، والألوان، واللغات إلا آية من آيات الله تعالى، وما وضعها الله تعالى إلا لحكمة

بالغة هدفها الوصول إلى التكامل الجمعي الإنساني الوحدوي، وهذا هو مصداق قوله تعالى: **"وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لآياتٍ لِلْعالِمِين"الروم:22.**

وهذا إثبات للإنسان بأن كل ما علمه وسيعلمه لا شيء بالنسبة للعلم الإلهي، وللحكمة الإلهية، لقوله تعالى: **"وَما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلمِ إِلاَّ قَلِيلاً" الإسراء :85**، وأن المخلوقات كلها بما فيها الإنسان ما هي إلا خلق الله سبحانه وتعالى، فعلى الإنسان ألا يتعالى، وألا يتبطر، وألا يتكبر ويصنع الفوارق، لقوله تعالى: **"وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ" الأنعام :38.**

كما وأن معتقدات بني الإنسان لها أصل واحد، فالدين واحد وإن ما جرى من تفرق فهو طارئ دخيل، فالفطرة الأولية، والدين الأولي هو التوحيد، وإن تبدلت مسمياته[22]،لقوله تعالى: " **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ" الشورى :13.**

إن الإنسان الأول إنسان كامل بخلاف كل النظريات اللادينية والتي ترجع الإنسان إلى القرد أو إلى السمك أو إلى الحشرات وما شاكلها، لقوله تعالى: **"الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسانِ مِنْ طِينٍ" السجدة: 7**، ولقوله: **"فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ " الطارق: 5 – 7**، ولقوله كذلك: **"الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ" السجدة: 7 – 9.**

إن قضية تطور وارتقاء الإنسان من المشي على أربع ثم على اثنين، وإن أصل الإنسان قرد ما هي إلا مزاعم باطلة، مخالفة للشرع والعقل، فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق المخلوقات كما هي عليه أشكالها اليوم، لقوله تعالى: **"هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " آل عمران: 6**، فالمخلوقات لها خصوصياتها التي اختصها الله تعالى بها لحكمة بالغة من عنده، وهي مخلوقة منذ الخلق ولحد اليوم بنفس أشكالها فلا تغيير ولا تبديل ولا غير ذلك، لقوله تعالى: **"وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " النور: 45**.

- **القرآن أبطل مذهب التطوريين:**

لقد استطاعت الأنثروبولوجيا أن تدرس الإنسان في تاريخه الطبيعي منذ ملايين السنين، واستطاعت أن تصل إلى أن الإنسان الحالي اختلف عن الإنسان الأول ولكن ذلك كان في الطول وشكل الوجه والشفاه، إلا أن الإنسان هو الإنسان خلقه الله بشرا من آدم.

لكن للأسف فإن كتب الأنثروبولوجيا محشوة بأفكار "داروين" الذي قال "بالانتقاء" الطبيعي وإن الإنسان خلق من غيره من الحيوانات التي هي أقل منه في الدرجة، وإنه كان يمشي على أربع ولكن مع التطور أصبح يحاول أن يدافع عن نفسه، ومن هنا استطاع أن يمشي على رجلين ويبدأ في النهوض، وحينما وصل إلى هذا بدأت جبهته تختلف، ووجود الجبهة أحدث نموا في الدماغ فأصبحت رجلاه الأماميتان يدين، إلا أن تلاميذ "داروين" أنفسهم انتقدوا هذا الكلام لأن معنى وجود الجبهة لا يعني اتساعا في المخ وحتى لو أن هناك اتساعاً في المخ فأين كانت مراكز اللغة وكيف تطورت حتى نطق الإنسان؟.

لقد ذكر القرآن التطور فقال الله تعالى: [ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا]، والأطوار هذه هي أطوار الجنين وتحوله من النطفة إلى المضغة إلى العلقة .. الخ، والقرآن يقول إن الله هو

الذي خلق آدم بيديه خلقا خاصا، وكذلك خلق كل مخلوق غير الإنسان، والعلم يقول لنا إن الخروف لم يتطور إلى الغزالة وإن الجمل لم يتطور إلى الحصان، والعلم يقول أيضا إن الحصان ذا الحوافر احتاج إلى 50 مليون سنة كي يتطور إلى حصان بلا حافر، وعلى هذا فلو سلمنا بصحة كلام داروين فإن القرد يحتاج إلى بلايين السنين كي يتطور إلى إنسان، بينما يتحدث العلم عن 15 مليون سنة فقط هي عمر الإنسان. وإذا قلنا إن الإنسان يتحول إلى قرد فإن هذا ينفي أن الله قادر على أن يخلق من جديد، لكنه سبحانه وتعالى حسم هذا الأمر فقال [أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير]، وقال أيضا [قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة]، والله تعالى يخلق هذا البشر مرة أخرى يوم القيامة وكأنه سبحانه وتعالى يقول أنا أستطيع أن أفعل ذلك ولست بحاجة إلى أن يحدث التطور بين الكائنات، وهناك آية أخرى تدحض كلام داروين وهي [والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع]، وإذا كان التطور صحيحا لذكر الله تعالى من يمشي على أربع أولا، ثم إن العلم لا يمكن أن يقوم إلا بالتجريب، فهل قام داروين بهذا التجريب وشاهد بعينيه، هذا محال وما كان كلامه إلا تخمينا وظنا، والظن لا يغني عن الحق شيئا.

- **إبطال نظرية النشوء والارتقاء:**

وهنا لابد أن نقف على أمر مهم ألا وهو نظرية التطور أو نظرية النشوء والارتقاء التي نادى بها (داروين) ودعاة المذهب اللاديني من بعده حتى اليوم، فلقد زعم البعض بأن فكرة التطور كانت نتيجة لدراسة (فكرة النشوء في علم الحياة) والتي دعى إليها الطبيب الفرنسي "لا مارك" [12] ،في كتابه (التاريخ الطبيعي للحيوانات اللافقرية) عرض فيه لقضية تطور الأحياء، وبيَّن طريق التطور، ولكنه عجز عن بيان الصلة بين أنواع الأحياء، كما عجز عن بيان العوامل التي أدت إلى التطور، ثم جاء بعد ذلك الإنكليزيان "تشارلز داروين"، و"ولاس" ليكملا نظرية "لا مارك"، وفي عام (1842م) نشر داروين

رسالة موجزة عما سماه بـ (نظرية النشوء والارتقاء) فتلقفها دعاة البوهيمية وأحدثوا حولها ضجة ملأت أرجاء العالم، ولا زالت لها بقايا حتى يومنا هذا في عقول البعض.[13]

وفكرة (النشوء والارتقاء) تزعم بأن تطور الخليقة بدأ من الأدنى (الرواشح والديدان والحشرات) إلى الأعلى (القرد)، ثم (القرود العليا)، ثم (الإنسان الأول)، كل ذلك يصور عدم وجود خالق، ولقد عجز (داروين) من إيجاد حلقة وسطى تربط الزواحف والطيور، كما فشل في إيجاد مثل هذه الحلقة بين القرد والإنسان، فما كان منهم إلا اللجوء للتزوير[14].

وهنالك كلام يُنقل بأن داروين لم يكن ملحداً، ولم يقل بالمصادفة، بل أراد من خلال نظريته أن يقول: "إن الخلق جميعاً نشأ من أصل واحد"، لكن – وبحسب من يقولون ذلك – اُستغلت هذه النظرية من قبل الملاحدة الماديين، فتبنوها وأخذوا يدافعون عنها، ومن أشهر أولئك العالم البيولوجي الألماني "أرنست هيجل" فقد قام هذا الشخص بتزوير عدة نماذج لإثبات هذه النظرية وذلك عندما رأى أن صورة الأجنة لا تتطابق تماماً مع نظرية التطور، فقام بعمليات ترتيش وحذف في صورة الأجنة البشرية لكي يطابقها مع النظرية التي يتزعمونها، لكن أحد العلماء اكتشف عملية التزوير، وأعلنها في الصحف، وتحدى "هيجل" في ذلك، فما كان من "هيجل" إلا أن يعترف بهذه الجريمة بعد فترة صمت وتردد في مقالة كتبها في (14 / 12 / 1908) قال فيها: "إن ما يُعزيه هو أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء والفلاسفة قاموا بعمليات مماثلة من التزوير لإثبات هذه النظرية"[15].

وإلى ذلك يشير "السيد الطباطبائي" (رحمه الله) بقوله: "إن النوع الإنساني، ولا كل نوع إنساني، بل هذا النسل الموجود من الإنسان ليس نوعاً مشتقاً من نوع آخر حيواني أو غيره حولته إليه الطبيعة المتحولة المتكاملة، بل هو نوع أبدعه الله تعالى من الأرض، فقد كانت الأرض وما عليها والسماء ولا إنسان، ثم خلق زوجين اثنين من هذا النوع وإليهما ينتهي هذا النسل الموجود، وأما ما

افترضه علماء الطبيعة من تحول الأنواع، وإن الإنسان مشتق من القرد، وعليه مدار البحث الطبيعي اليوم، أو متحول من السمك على ما احتمله البعض، فإنما هي فرضية، والفرضية غير مستندة إلى العلم اليقيني، وإنما توضع لتصحيح التعليلات والبيانات العلمية، ولا ينافي اعتبارها اعتبار الحقائق اليقينية، بل حتى الإمكانات الذهنية، وإذ لا اعتبار لها أزيد من تعليل الآثار، والأحكام المربوطة بموضوع البحث[16].

إن بعض الحفريات التي تمت في مجال (الحفريات البشرية) (paleontology) والذي يعتبر أحد فروع الأنثروبولوجيا العضوية قالت: إن الإنسان القديم والذي كان يعيش على هذه الأرض منذ ما يقارب نصف مليون سنة، كان يختلف عن الإنسان الحالي، حيث كان أكبر حجماً و أقوى بنية، وهذا ما أثبته القرآن الكريم في العديد من آياته، قال تعالى: **"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا " الروم: 9**، وقال تعالى: **"كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً "التوبة: 69**.

- **مفهوم الثقافة قرآني لا غربي**

إن مفهوم الثقافة – كما يقول الباحث – هذا المفهوم الذي يعتبر أهم أبحاث الأنثروبولوجيا المعاصرة هو مفهوم قرآني لا غربي على عكس ما يدعي علماء الغرب، فالفعل ثقف يثقف ثقافة بمعنى الإدراك والفهم والوعي والتبصر، والقرآن يقول "واقتلوهم حيث ثقفتموهم"، ويقول أيضا "فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم"، ويقول كذلك "إن يثقفونكم يكونوا لكم أعداء"، فالمفهوم إذا موجود في القرآن وموجود أيضا في صلب اللغة العربية، إن الثقافة في المفهوم الأنثروبولوجي لا تعني العلم والتعلم، ولكن تعني العادات والقيم والمفاهيم والرموز التي تميز شعبا أو مجتمعا عن شعب ومجتمع آخر، والقرآن حدثنا عن ثقافات العالم كله منذ نشأ هذا العالم من خلال الرسل والأقوام الذين آمنوا والذين كفروا..الخ.

- **مسألة البدائية بين الحقيقة والوضع والتنظير:**

لو تفحصنا أكثر الكتب الخاصة بـ (الأنثروبولوجيا)، وبالخصوص في مواضيع (علم الآثار) و(التاريخ)، والمواضيع (الأنثروبولوجية)، وفي أماكن أخرى، نلحظ موضوعًا مهمًا، ومصطلحًا يتكرر، ونردده، ونقرؤه، وكأنه من المسلمات والحقائق، ألا وهو (البدائية)، و(الإنسان البدائي)، فما هذه المرحلة؟، ومن هو هذا الإنسان المشار إليه؟، وهل هناك دليل على وجوده؟

في الحقيقة لقد أصبح من المسلمات أن تتناول كتب الأنثروبولوجيا مرحلة (البدائية) كأنها مرحلة طبيعية، وحقيقية، وواقعية مرت على الجنس البشري، وهي تشكل مرحلة من مراحل عمر هذا الجنس قبل أن يصل إلى مرحلة (العقل)، وهم ووفق ذلك وضعوا النظريات الخاصة بذلك، وجعلوها من أساسيات دراسة الأنثروبولوجيا، ولو رجعنا إلى العلماء الأوائل الذين وضعوا هذا (المصطلح) فمن أين جاءوا به؟، وما الدليل عليه؟

في الحقيقة إن مسألة تثبيت مرحلة (البدائية) جاءت من جراء دراسة مجتمعات وأقوام موجودة حالياً بحجة أنها تحاكي أو تطابق المجتمعات البدائية، وفي الحقيقة هذا ما تتبناه الفلسفات المادية، وأصحاب النظريات اللادينية، فقد قام جملة من علماء الإنسان بدراسة أقوام في الكونغو، والأمازون، وأستراليا، وأماكن أخرى، من خلال اعتبارهم الامتداد للطور البدائي، وإنهم يحاكون تلك المرحلة، والمشكلة هي لإثبات وجود هذه المرحلة، ومن ثم نحاكيها، أو نبني النظريات حولها، أو نبحث عن ما يشابهها، لابد أن نعقد مقارنات نستحصل منها الحقائق اللازمة عن تلك المرحلة الزمنية.

إن الله سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان، وهو الذي وضع فيه العقل، وجعله مفكراً عاقلاً متأملاً، تواقًا لبني جنسه، اجتماعيًا بطبعه، محبًا للتعرف على الأشياء، وتواقًا للمعرفة، ولكل ما يساهم في راحته وسكينته، ديدنه التغير والتبدل والتطور لما هو أحسن وأفضل، ولذلك أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل والأنبياء (عليهم السلام)، وأشار إلى أن إرسالهم كان (بلغة أقوامه،قال تعالى: "**وَما أَرْسَلْنا**

مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " إبراهيم: 4.

فإن كانت البدائية والتي تساوق الحيوانية والبهيمية مرحلة حقيقية فما الفرق بين الإنسان والحيوان؟، وهذا تأكيد على النظرية (الدارونية) البعيدة عن الواقع، والتي أثبت العلم كذبها، وبالتالي فما الحكمة من إرسال الرسل والأنبياء (عليهم السلام) من أول يوم للإنسان على الأرض، وحتى سني خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليهم وسلم)، والذين بلغ تعدادهم (124000) نبي ومرسل، قال تعالى : **"ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا" المؤمنون: 44.**

وإذا كانت مرحلة سابقة لمرحلة (العقل) و(التطور) فهذا مخالفٌ للعدل الإلهي، وللخطاب الإلهي القائل بالكرامة الإنسانية، قال تعالى: **"وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً " الإسراء: 70.**

ونحن نعلم بأن الإنسان الأول هو (آدم) وزوجته (حواء) نزلا إلى الأرض حيث لا إنسان، ثم كونا عائلة، ومن ثم تكون المجتمع، وكذلك نعلم بإن الهداية سابقة للضلال، والتوحيد سابق للشرك، وأن الحضارة والمدنية سابقة للبدائية والتخلف، وما (البدائية) إلا مرحلة افتراضية طارئة جاء بها أصحاب الفلسفات المادية، ودعاة الفكر العلماني اللاديني، لكن المشكلة الواجب أن نلتفت لها أن قضية (البدائية) موجودة في الكتب والمناهج الدراسية للدول الإسلامية، سواء في (التاريخ)، أو (علم الاجتماع)، أو (علم الإنسان)، أو (علم الآثار)، وبذلك أصبح واقعاً يشكل حيزاً في ذهنيات أبنائنا يتعلمونه من المدارس التابعة لدول ترفع شعار الإسلام، وهذا يعتبر لب الإشكال وصلب المشكلة، فما السبيل لمراجعة ذلك؟

الهوامش:

(1)المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة ونقدها، مادة أنثروبولوجيا / مدخل إلى الأنثروبولوجيا، حسن أبو زيد، ص 13 – 14.

(2)شاكر مصطفى سليم، المدخل إلى علم الأنثروبولوجيا، بيروت: مطبعة العاني، 1975، ص 7.

(3) وصفي عاطف، الانثربولوجيا الاجتماعية، ط2، بيروت: دار النهضة العربية، 1981، ص 10.

(4)حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا، سلسلة عالم المعرفة،عدد 98، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1990، ص 13.

(5)قاموس الأنثروبولوجيا، ص 56.

(6)عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب، ص 13 – 14.

(7)علم خصائص الشعوب، علي عبد الله الجباوي، على الموقع:

aktaba.lagh-univ.dz/pmb/opac_css/index.php?lvl

(8)المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة ونقدها، مادة أنثروبولوجيا.

(9)المعجم الموسوعي لمصطلحات الحداثة ونقدها، مادة أنثروبولوجيا.

(10)يعقوب يوسف الكندري، الثقافة، والصحة، والمرض، رؤية جديدة في الأنثروبولوجيا المعاصرة،دار المعراف، 2003، ص 26.

(11) النوري قيس، المدخل الى علم الانسان، بغداد: الدار الوطنية للطبع، 1983، ص 33.

(12) لا مارك 1744 – 1829م، على الموقع التالي:

ww.startimes.com/f.aspx?t=28097436.

(13) كاظم ناصر الحسن، فلسفة الخليقة، الرياض: مكتبة فهد الوطنية، 1990 ، ص 111.

(14)أكبر أحمد، نحو علم الإنسان الإسلامي،على الموقع:

ww.goodreads.com/book/show/2008951..

(15) جمال الدين الشيال، رفاعة الطهطاوي، القاهرة: دار المعارف ، ص 5.

(16) النائيني، تنبيه الأمة وتنزيه الملة، سلسلة تحديث الفكر الديني، مركز دراسات فلسفة الدين، د.م.ن، ص 94.